

وبدا لتوه العمل في انشاء حلقات سرية . ان ما بلغت النظر في النشاط القسامي عقله التنظيمي المتقدم ، وصبره الحديدي : فقد رفض عام ١٩٢٩ الاندفاع في الاعلان عن وجوده المسلح ، وبالرغم من ان هذا الرفض قد ادى الى انشقاق في تنظيمه ، الا انه استطاع ان يظل متماسكا وسريا . ويقول احد القساميين المعروفين (٦٧) ان القسام برمج ثورته في اربع مراحل : الاعداد النفسي ونشر روح الثورة ، انشاء حلقات سرية ، تشكيل لجان لجمع التبرعات ولجان لشراء السلاح ، ولجان تدريب ، ولجان امن وتجنس ، ولجان دعائية واعلام ، ولجان اتصالات سياسية . ثم الثورة المسلحة .

ان معظم المعارنين بالقسام يقولون ان خروجه الى تلال يبعد مع ٢٥ من رجاله ليل ١٢/١١/١٩٢٥ لم تكن غايته اعلان الثورة المسلحة ، ولكن نشر الدعوة للثورة ، الا ان اشتباكا عرضيا ادى الى انتضاح امر وجوده هناك ، وبالرغم من استيصاله مع رجاله فقد قضت قوة بريطانية على مجموعته بسهولة ، ويبدو ان الشيخ القسام ، حين شعر بانته لم يعد بوسعه توسيع الثورة مع رفاقه ، ربح شعاعه المشهور : « موتوا شهداء » . ومن حق القسام ان نغمه شعاعه هذا فهما « غيلاريا » اذا جاز التعبير ، ولكن على المستوى الوطني العادي ، ان سلوك القسام من خلال الشهادات القليلة التي نملكها عنه تدل على انه كان يدرك اهمية دوره كمفجر لبؤرة ثورية امامية . وما لبث هذا الشعار ان اثمر على التو : فقد سيمت الجماهير جثمان شهيدها مشيا على اقدام السى قريبة ياجور مسافة ١٠ كيلو مترات ، على ان اهم ما في الامر كان افتضاح القيادات التقليدية امام التحدي الذي مظهه الشيخ القسام . وقد شعر هؤلاء القادة بهذا التحدي بنفس المقدار الذي شعر فيه الانتداب البريطاني . ويقول احد القساميين انه قبل ان يصعد القسام الى الجبال بشهور قليلة ارسل الى الحاج امين الحسيني بواسطة الشيخ موسى العزراوي يطلب منه التنسيق لاعلان الثورة في جميع انحاء البلاد ، الا ان الحسيني رفض ، بحجة ان الظروف لم تنضج بعد (٦٨) . وعندما استشهد القسام لم يسر في جنازته الا الفقراء ، واتخذ الزعماء موقفا فاترا ما لبثوا ان ادركوا خطأه ، فقد شكل استشهاده القسام

حدثا بارزا لم يكن بوسعهم تجاوزه بالتجاهل ، والدليل على ذلك ان ممثلي الاحزاب الفلسطينية الخمسة قاموا بزيارة المندوب السامي البريطاني بعد ستة ايام فقط من استشهاده القسام ، وقدموا له مذكرة لعلها من اندر المذكرات صفاتة ، فقد اعترفوا به « انهم اذا لم يتلقوا عن مذكراتهم هذه جوابا يمكن اعتباره بصورة عامة مرضيا ، فانهم سيفقدون كل ما يملكونه من نفوذ على اتباعهم ، وعندئذ تسود الراء المتطرفة غير المسؤولة ، وتتدهور الحالة سريعا » (٦٩) . فمن الواضح انهم كانوا يريدون توظيف ظاهرة القسام لتحقيق خطوة الى السوراء . على ان الشهيد القسام كان قد فوت عليهم ، بالشكل النضالي الذي تميزه ، فرصة التراجع ، وهذا في الواقع ما يفسر اختلاف موقف الزعماء الفلسطينيين من استشهاد الشيخ القسام فور حدوثه عن موقفهم في الاحتفال الابرعيني باستشهاده ، فقد اكتشفوا خلال هذه الايام الابرعيين انهم اذا لم يحاولوا ركوب الموجة الشامخة التي فجرها القسام ، فانها ستطويهم ، ولذلك تغزوا من الفتور في جنازته ، الى المهرجانات والخطابات في اليوم الابرعيين لاستشهاده .

ويبدو ان الحاج امين الحسيني سيظل فيما بعد شاعرا بهذه الثغرة ، وحتى بعد اكثر من عشرين سنة ستظل مجلة « فلسطين » الناطقة بلسان الهيئة العربية العليا ، تحاول الايحاء بان الحركة القسامية انما كانت جزءا من نشاط الحركة التي كان يقودها المفتي ، وان هذا الاخير والقسام ، كانا « اصداق شخصيين » (٧٠) .

اما البريطانيون فقد رووا قصة القسام في تقريرهم السنوي الذي جرى تقديمه الى لجنة الانتدابات في جنيف عن وقائع ١٩٢٥ كما يلي : « انتشرت في الجو اشاعات من عصابة للارهاب تالفت بوجي من عوامل سياسية دينية ، وفي يوم ٧ تشرين الثاني ١٩٢٥ كان جاويش ونفر من البوليس يقتفیان اثر سرقة في هضاب قضاء الناصرة فاطلق مجهولون النار فقتلوا الشاويش ... وسرمان ما ادى هذا الحادث الى اكتشاف عصابة كانت في ذلك الجوار تحت قيادة عز الدين القسام ، وهو لاجيء سياسي من سوريا ، وهو ذو مكانة ليست بالقليلة كرجل من رجال الدين ، وقد اشبهه به اشتباها قويا قبل ذلك ببضع سنوات ، وقيل ان له